أفصح العرب ﷺ

بلاغة التعبير في حديث (ما ذئبان جائعان)

د. إبراهيم سعيد السيد

الحَمْدُ للّهِ، هو الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والبَاطِنُ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى صَاحِبِ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الحَشْرِ، اللهُمَّ صَلِّ عَلَي سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، أَمَّا بَعْدُ

فَحَقِيقٌ بِنَا نَحْنُ المسْلِمِينَ أَنْ نُدَقِّقَ النَّظَرَ فِيمَا أَطْلَعَنَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ وأَخْبَر، وإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ فِعْلُ مَنْ يَتَحَرَّى نُبوءَاتِ العَرَّافِينَ والخرَّاصِينَ، ويَتْرُكُ كَلامَ سَيِّدِ المرْسَلِينَ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ مَنْ يَعْدِلُ بالتِّبْرِ التُّراب، وبالعِيِّ والخطَلِ البَلاغَةَ والصَّوَابَ. وبَيْنَ أَيْدِينَا فِي هذا المقَالِ نصٌّ جَليلٌ، يُميطُ اللثامَ عَنْ جَانِبٍ مِنْ أَغْوَارِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ، ويُبْرِزُ المعانيَ المجرَّدَةَ فِي صورةٍ حِسِّيَّةٍ، حيث يُقَدِّمُ مَضْمُونُهُ –وما تقتضيه دِلالةُ المفْهُومِ- فِكْرَةَ التَّحْذِيرِ مِنْ طَلَبِ الجَاهِ والمنْصِبِ، ومَا يَعْقُبُهُ مِنْ آثَارٍ كَالتَّرَدُدِ عَلَى أَبْوابِ الظَّلَمَةِ وغَيْرِه.

نستعينُ بِاللّٰه تَعَالى فِي تَذَوُّقِ بَلاغَتِهِ وجَلالِ مَضْمُونِهِ.

عَنْ ابْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ الأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»[1].

سُبْحَانَ مَنْ آتَى النَّبِيَّ ﷺ جوامِعَ الكَلِمِ، وخُلاصَةَ التَّجَارِبِ ونَاجِعِ الحِكَمِ، حتَّى سَاقَ الكَلامَ الوَجِيزَ مُضَمَّنًا مِن المعْنَى الغَزِيرِ العَزِيزِ.

يصف الرافعيُّ بَلاغةَ النَّبِيِّ ﷺ بقوله: «البَلاغَة الإِنْسَانية التي سَجَدَتْ الأفكارُ لآيَتِهَا، وحسرت العقولُ دونَ غَايَتِهَا، لم تُصنَعْ وهي من الإِحْكَامِ كَأَنَّها مصنوعةٌ، ولم يُتكلفْ لها وهي على السُّهُولةِ بعيدةٌ ممنوعَةٌ»[2].

---

(١) رواه الترمذي فِي سننه، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، حديث رقم ٢٣٧٦، ومصنف ابن أبي شيبة، حديث رقم ٣٤٣٨٠.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية،

فكمْ هلكَ خلقٌ كثيرٌ بسبب حرصِهمْ على الجَاهِ، واستْبدَالِهمْ بالآخرةِ الوَضِيعَ مِن الحيَاة، حتى سَقُمَتْ أفهامُهُمْ، وانْخَدَعَتْ عُقُولُهُمْ، وتاهَتْ قلوبُهم؛ فكان التِّيهُ حَاقًّا بمَنْ جَعَلَ الدُّنْيَا همَّه، ففرق اللّٰه عليه شمله. وأُلَخِّصُ حَدِيثِي في أربع نِقَاطٍ:

الأولى: حِسِّيَّةُ المَعَانِي في حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ:

إن غَالبَ أَحَاديثِ النَّبِيِّ ﷺ تُقَدِّمُ المعنى في صُورةٍ مَحْسُوسَةٍ مُشَاهَدةٍ، وذلك بِسَوْقِ المعنى وَفْقَ الطرائق التعبيرية التي تُيَسِّرُ هَذِهِ المهِمَّةِ، كالتَّشْبِيهِ والمجازِ وغَيْرِهِمَا، كقوله: «مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللّٰهِ والوَاقِعِ فيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ...»(١)، وقوله: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللّٰهُ بِهِ مِن الهُدَى والعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ...»(٢)، وهَذَا الحَدِيثُ الجَلِيلُ – مَحِلَّ التَنَاوُلِ- يُقَدِّمُ لنَا المعنى كَذَلِكَ في صُورَةٍ مَحْسُوسَةٍ مُشَاهَدَةٍ، فَهُوَ يُقَدِّمُ حَالَيْنِ: أَحَدَهُمَا مَعْنَوِيٌّ، والآخرَ حِسِّيٌّ، جَمَعَ بينَهُمَا وَجْهُ شَبَهٍ فانْسَحَبَ الحِسِّيُّ عَلَى المعنويِّ فجلاه وأَبْرَزَهُ للنَاظِرِينَ. أمَّا الحالُ الأُولى فَهِيَ حِرْصُ الإِنْسَانِ عَلَى المنْصِبِ والجَاهِ وضَرَاوَتُهُمَا على إِفْسَادِ الدِّين، وأمَّا الحَالُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ صُورَةُ ذِئْبَيْنِ جَائِعَيْنِ يَتَضَوَّرَانِ جُوعًا، وقَدْ أُطْلِقَا في غَنَمٍ.

قال المنَاوِيُّ: «المقْصُودُ أنَّ الحِرصَ عَلَى المالِ والشَّرَفِ أكثرُ إِفْسَادًا للدِّين مِنْ إِفْسَادِ الذِّئْبَينِ للغنم؛ لأن الأَشَرَ والبَطَرَ يُفْسِدَانِ صَاحِبَهُمَا، أمَّا المالُ فَلأَنَّهُ يَدْعُو إلى المعَاصِي فَإِنَّهُ يُمَكِّنُ مِنْهَا ... لأَنَّهُ يَدْعُو إلى التَّنَعُّمِ بالمباحَاتِ، فَيَنْبُتُ عَلَى التَّنَعُّمِ جَسَدُهُ، ولا يُمْكِنُهُ الصَّبْرُ عَنْهُ، وذَلِكَ لا يُمْكِنُ اسْتِدَامَتُهُ إلا بالاسْتِعَانَةِ بالنَّاسِ، والالْتِجَاءِ إلى الظَّلَمَةِ، وذَلَكَ يُؤَدِّي إلى النِّفَاقِ والكَذِبِ، وأمَّا الجَاهُ فَإِنَّهُ أَعْظَمُ فِتْنَةً مِن المالِ؛ فَإِنَّ مَعْنَاهُ العُلُوُّ والكِبْرِيَاءُ والعِزُّ، وَهِيَ من الصِّفَاتِ الإِلهِيَّةِ»(٣).

للرافعي، ط/دار الكتاب العربي بيروت ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م، صـ١٩٣.

(١) صحيح البخاري، كتاب الشركة/ باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه ، حديث رقم ٢٤٩٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلّم، حديث رقم ٧٩.

(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير. للمناوى،

أمَّا التوجيهُ النَّحْوِيُّ فـ«(ما) بمعنى لَيْسَ، و(ذِئْبان) اسمُهَا و(بأَفْسَدَ) خَبَرُ مَا ... واعتبر فيه الجنسية فأنث (لها) ... و(لدينه) لامُهُ لِلْبَيَانِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لأفسد من أَيِّ شَيْءٍ؟ قِيلَ: لِدِينِهِ»[1]. وهَا هُنَا تَفْضِيلٌ يَقْتَضِي النَّظَرَ، حَيْثُ نجدُ النَّصَّ النَبَوِيَّ الكَرِيمَ - بعْدَمَا وَصَفَ هَذَيْنِ الذِّئْبَينِ ومَا يُتَصَوَّرُ حُدُوثُهُ في غَنَمَاتٍ ضَعِيفَةٍ مَا تَلْبَثُ أَنَّ تَخِرَّ صَرِيعَةً- يَأْتِي باسْمِ التَّفْضِيلِ (أَفْسَدَ) فيَقُول: «بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ»، «وقَوْلُهُ (مِنْ حِرْصِ المرْءِ) هُوَ المفَضَّلُ عَلَيْهِ»[٢]، فحِرْصُ الإنسانِ على المنصِبِ والجَاهِ ،وما يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِمَا مِنْ آثَارٍ وتَنَازُلاتٍ، أَفْسَدُ للدِّين والمبادِئِ من وَصْفِ الذِّئْبَيْنِ المذْكُورِ.

❖❖❖

الثانية: تَعَالُقُ الحِرصِ عَلَى المَنْصِبِ والجَاهِ بالدُّخُولِ عَلَى الظَّالِمِين:

فالحريصُ عَلى الجَاهِ الدُّنْيَوِيِّ أَمْرُهُ مَرْهُونٌ بِرِضَا السُّلْطَانِ عَنْهُ، ومَا كُلُّ سُلْطَانٍ تَسْتَقِيمُ سِيرَتُهُ، وإِنْ اسْتَقَامَتْ سِيرَتُهُ، فلا يَأْمَن الحريص على الجاه عند السلطان على دينه، فمخالطة السلاطين يغلب عليها عدم إنكار المخالفة، إما بالسّكُوتِ لكثرة الران المالئ للقلب من جهة الحرص، أو بالإقرار الصريح والمباشر بأعمالهم المجاوزة لمقاصد الشريعة من حفظ الدين والدماء والأعراض ... الخ، وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «يَدْخُلُ الرَّجُلُ عَلَى السُّلْطَانِ ومَعَهُ دِينُهُ، فَيَخْرُجُ ومَا مَعَهُ شَيْءٌ»[٣]. وقد نسب إلى سفيان الثوري أنه قال: «إِنْ دَعَوْكَ لِتَقْرَأَ عَلَيْهِمْ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فلا تأتهم»[1].

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير ـ للمناوى، ٢ /٦٧٧.

(٢) السابق نفسه.

(٣) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، جمال الدين ابن منظور، دار الفكر

قَالَ أَبوحامدٍ الغَزالي - رحمه اللّه تعالى: «اعْلَمْ أَنَّ لَكَ مَعَ الأُمَرَاءِ والعُمَّالِ الظَّلَمَةِ، ثَلاثَةَ أَحْوَالٍ: الحال الأولى: وهي شَرُّهَا، أَنْ تَدْخُلَ عَلَيْهِمْ، والثانية: وهي دُونَها أَنْ يدخلوا عليك، والثالثة: وهي الأَسْلَمُ أَنْ تَعْتَزِلَ عَنْهُمْ، فَلا تَرَاهُمْ ولا يَرَوْنَك»[٢].

وروي عن سلمة بن قيس، قال: لقيت أبا ذر، فقال: «يا سلمة بن قيس... لا تغش ذات سلطان؛ فإنك لا تصيب من دنياهم شيئًا، إلا أصابوا من دينك أفضل منه». وروي عن وهب بن منبه أنه قال لعطاء: «إياك وأبواب السلطان! فإن على أبواب السلطان فتنًا كمبارك الإبل، ولا تصيب من دنياهم شيئًا إلا أصابوا من دينك مثله»[٣].



الثالثة: مَكْمَنُ الخَطَرِ في الحِرْصِ:

١- أنَّ العَالِمَ قَدْ يَكْتُمُ مَا عِنْدَهُ مِن العِلْمِ مُدَاراةً، أَوْ مُدَاهَنَةً، أو طلبًا لِلَعَاعَةٍ من الدُّنيا، كما روي عن ابن مسعود أنه قال: «لو أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ صَانُوا العِلْمَ، ووضَعُوهُ عِنْدَ أَهْلِهِ، لَسَادُوا به أَهْلَ زَمَانِهِمْ، ولَكِنَّهُمْ بَذَلُوهُ لأَهْلِ الدُّنْيَا، لِيَنَالُوا به مِنْ دُنْيَاهُمْ، فَهَانُوا عَلَيْهِ»[٤].

للطباعة والنشر – سوريا، ١٤٠٢هـ-١٩٨٤م، ٢٤/٣٩٦.

(١) شرح السنة، للإمام البغوي، ١٤/٢٩٦.

(٢) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، ط/دار المعرفة بيروت، ٢/١٤٢.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي.

(٤) التاريخ الكبير، للإمام البخاري،ط/ دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان، ١/٤٤٣.

٢- أن الحِرْصَ عَلَى المالِ قَدْ يكونُ مَشْغَلَةً عَنْ الوَاجِبِ مِنْ حَظِّ الآخرة، مَجْبَنَةً عَنْ قَوْلِ الحَقِّ، وحِينَئِذٍ يَسْتَحِيلُ الأمْرُ مِنْ سَعْيٍ بالمالِ لِلآخِرَةِ، إلى سَعْيٍ لِلمَالِ عَلَى حِسَابِ الآخِرَةِ، ويأتي تحذير النبي ﷺ من ذلك في قوله: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ... الخ»(١).

٣- أن الحرصَ عَلَى المالِ قَدْ يَأْتِي عَلَى جُلِّ وقْتِ الإنسَانِ، بما لا يَدَعُ لنفسِهِ ولقلبِهِ شُغُلاً آخرَ غَيْرَه، كَقَوْلِ عَلِيٍّ - رضي الله عنه- : «الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ، وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ»(٢)، والحارسُ لا يَتَسَنَّى لَهُ أَنْ يَلْتَفِتَ عَنِ الشَّيْءِ الذي يَحْرُسُهُ، وإلا تَعَرَّضَ للضَّيَاعِ والبَدَدِ.

الرابعة : بين التمتع بالطيبات والحرص: فالتنعمُ بما آتاهُ اللّهُ تعَالى العبدَ مِنْ نِعمٍ لَيْسَ دَاخِلا في المقصود، لأَدِلَّةٍ تَرُدُّهُ منها قول الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»(٣)، والفرقُ بينَ هذا والحرصِ عَلى جمعِ المالِ - وإنْ بطُرُقٍ غيرِ مَشْرُوعَةٍ- مع الحرصِ على الجَاهِ - وإن على حِسَاب المبادِئِ وتَعَالِيمِ السَّمَاءِ- واضحٌ بَيِّنٌ؛ «أمَّا المالُ فإفْسَادُهُ أَنَّهُ نَوْعٌ من القُدْرَةِ يحركُ داعيةَ الشَّهواتِ، ويجرُّ إلى التَّنَعُمِ في المباحاتِ فيصيرُ التَّنَعُمِ مَأْلُوفًا، وربما يشتدُّ أُنْسُهُ بالمالِ ويعجزُ عن كسبِ الحلالِ فيقتحم في الشبهاتِ مع أنها ملهيةٌ عن ذكرِ اللّهِ تعالى، وهذه لا ينفكُّ عنها أحدٌ، وأمَّا الجاهُ فيكفي به إفسادًا أن المالَ

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، حديث رقم ٢٨٨٧.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، ٧٩/١.

(٣) سنن الترمذي ، حديث رقم ٢٨١٩.

يُبْذَلُ لِلْجَاهِ، ولا يُبْذَلُ الجَاهُ للمَالِ وهو الشِّرْكُ الخَفِي فيخوض في المرآة والمداهنةِ والنفاقِ وسائرِ الأخلاقِ الذَّمِيمَةِ فهو أَفْسَدُ وأَفْسَد»[1].

لكن يبقى الفرقُ حاصِلاً بين المعنى المقصودِ من الحديثِ، وطلبِ المالِ ليكونَ أَدَاةً معينةً على تحصيلِ الخيرِ وسَدِّ العَوَزِ، وقد رُوِيَ عن أيوب السختياني قال: قال لي أبو قلابة: «يا أيوب، احفظ عني ثلاث خصال: إِيَّاكَ وأبوابَ السُّلْطَانِ، وإِيَّاكَ ومجالسةَ أهْلِ الأَهْوَاءِ، والزَمْ سُوقَكَ فإنَّ الغِنَى مِنَ العَافِيَة»[2].

❖❖❖

والسؤال : أَنَّى لهذا النصِّ اليسيرِ مِنْ الألفاظِ عددًا، الكبيرِ من حيثُ المضمونُ والقيمةُ مددًا، أَنْ يحوزَ هذِهِ المعَاني وغيرَهَا ممَّا لمْ يُفْتَحْ علينَا به؟ «تلكَ حِكْمَةُ النُّبُوَّةِ، وتَبْصِيرُ الوَحْي وتَأْدِيبُ اللّهِ، وأَمْرٌ في الإِنْسَانِ مِنْ فوقِ الإِنْسَانيَّةِ»[3].

وصلى الله على النبي محمد وآل بيته، وسلم تسليمًا كثيرًا.

❖❖❖

(١) تحفة الأحوذي، ٧ /٣٩.

(٢) تاريخ دمشق، للحافظ ابن عساكر، ٢٨/ ٣٠٤.

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للرافعي.